ذكرى قاسم أمين

للأستاذ علي الجارم بك

ملّ من وجده ومن فرط مابه وأراق الشرابَ من أكوابه
وإذا القلب أظمأته الأمانيّ ، فماذا يريده من شرابه ؟
وإذا النفس لم تكن منبتَ الأنس تناءى القريبُ من أسبابه
وأشدُّ الآلام أن تُلزمَ النف رَ ابتساما والقلبُ رهنُ اكتئابه

* * *

كلما اختال في الزمان شبابٌ عصفت ريحُه بلَدْن شبابه !
والنبوغ النبوغُ يمضي ويمضي كلُّ آمال قومه في ركابه
غَرِدٌ ، ما يكاد يصدح حتى يُسكتَ الدهرُ صوته بسُحابه
وحَبابٌ ، إذا علا الماء ولى فاسأل الماءَ : هل درى بحبابه ؟
وسفين ، ما شارف الشطّ حتى مزّق اليمُّ دُسُرَه بعبابه
بخل الدهرُ أن يطوّل للعقل فيجري إلى مدى آرابه

* * *

كلما سار خطوةً وقف المو ت فسدّ الطريقَ عن طلابه
وابتداء الكمال في عمل العا مل بَدْءُ الشكاة من أوصابه
صلةً نكتم المَشيب فيبدو ضاحكاً ساخراً خلالَ خضابه
أين من يستطيع أن يرشد الدنيا ، وسوطُ المنون في أعقابه ؟
أيها الموت أمهل الكاتبَ المسكين يُرسلْ أنفاسه في كتابه

* * *

آه لو يشتري الزمان قريضي بسنين تعدُّ لي في حسابه !
ماحياتي ، والكونُ بعدَ جهادي لم أزل واقفاً على أبوابه ؟
تظمأ النفسُ في حياة هي الفقر فترضى بنهلة من سرابه
أنا قلبي من الشباب ، وجسمي أثخن الشيب رأسه بحرابه
أملٌ هذه الحياة ! فهل يعمر بي الموت دون وشك طلابه ؟
كلما رمتُ لمحة من سناه هالني بعدُه وطول شعابه
ما الذي تبتغي يدُ الدهر مني ودمي لا يزال يملأ لعابه ؟
دع يراعي يا دهر يملأ سمع النيل من شدوه وعزف ربابه
كلُّ شيء له نصاب سوى الفن فلا حدَّ ينتهي انتصابه

* * *

عصفت صيحة الردى بخطيب وهو لم يَمدُ صفحة من خطابه
سكتةٌ أسكتت نثيج خضمٍّ عقد النوء لجه بسحابه
سكتة أطفأت منار طريق كم مشت مصر في ضياء شهابه
ومضى « قاسم » وخلف مجداً تفرع النجم راسيات قبابه

* * *

قد نكرناه حين قام ينادي وفهمنا معناه يوم احتسابه
ربَّ من كنتَ في الحياة له حر باً شققت الجيوب عند غيابه
وتحدّيتَ شمسه ، فاذا ولّى تمنيت لمحة من ضبابه
لم يفز منك مرة بثناء فتثرت الأزهار فوق ترابه
يُعرف الوردُ حينما ينقضي الصيـ ـفُ ويُبكى النبوغ بعد ذهابه
كم ندبنا الشباب حين تولى وشغفنا بالبدر بعد احتجابه
كتب الله أن يعيش غريباً كل ذي دعوة إلى الحق نابه
لا ترى فوق قمة الطود إلا بطلا لا يهاب هولَ صعابه
كلُّ ذات الجناح طير ، ولكن عزف الجو نسره من غرابه
كم رأينا في الناس من يبهر العيـ ـين وما فيه غير حسن ثيابه
يملأ الأرض والسماء رياء وعيوبُ الزمان ملء عبابه

* * *

نقد الناس « قاسماً » فرأوه أصبر الناس في تجرع صابه
حجة الجاهل المراء ، فان شا ء سموا أمدها بسبابه
قد يغشى الوجدان باصرة العقـ ـل فيعميه عن طريق صوابه
صال بالرأي « قاسم » لا يبالي ومضى في طريقه غيرَ آبه
كم جريءٍ لا يرهب السيف إن سل ونكس يخاف مسَّ قرابه
والشجاع الذي يجاهر بالحق ولو كان فيه مرُّ عذابه
كيف يهدى النصيح إن ريع يوماً من قِلَى من يحب أو إغضابه
وطريق الاصلاح في كل شعب عسر المرتقى على مجتابه
يعشق الشعب من يدلله زو راً يمُذْقٍ من سخفه وكذابه

* * *

قمتَ للجهل تقلمُ الظفر منه وتفضُّ الحِداد من أنيابه
في زمان كان القديم به قد سأ يذاد الجديد عن محرابه
يا نصير النساء والدين سمح لو وعينا السريُّ من آدابه
قد خشينا على الحمائم في الدو ح أظافيرَ بازه أو عقابه
إن أردت الظباء تمرح في السهل فطهِّر أكنافه من ذئابه